باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناه ترغيباً في المعارف وإنهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان. ولكن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله. ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي: (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق. فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل. فالمقالات الوافية مع الايجاز تستجار على المطولة

حياة ابن الرومي[1]

للاستاذ عباس محمود العقاد في ادب العصر زعامة بلغها لمزايا فيه من أخص المزايا النفسية الصحيحة. ولا شأن فيها للأحوال العارضة والظروف الطارئة والملابسات الخارجية

واذا كان هنالك في كل ادب وفن اناس يصطنعون المناداة بالثورة على كل قديم لغير سبب يعرفونه إلا انه قديم ولأن انتقاص الأقدمين والانتقاض عليهم فيه تملق لجمهرة المحدثين، او هم يتعمدون الشذوذ على الاجماع من غير مراجعة وطول روية وبحث، إشباعاً لغرور النفس بالتعالي عما يذهب اليه عامة الخلق، او ولعاً بالظهور من غمرة الخمول، او لالتواء في الطبيعة وزيغ في البصيرة. واذا كان هنالك كذلك اناس نقيض هؤلاء سبيلهم تمليق الأذواق الفاشية ومصانعة الافكار الشائعة والانطباع في كل شيء بالتقاليد المتوارثة المتعارفة: نقول اذا كان هنالك في كل أدب وفن فريقان من الغلاة كل منهما في حكم ردّ الفعل للآخر وهما من مطالب العصر ومقتضياته، فان هنالك فريقاً صحيح المزاج قائماً في وسط هذه التيارات أساسه ركين واصل الى الاعماق لا يتأثر بالمد ولا بالجزر. وعن هذا الفريق — والعقاد في عداده — تؤخذ الحقائق السليمة الممحصة

تصحيح النظر الادبي

طويل وشاق جهادُ العقاد في تصحيح النظرة الى الأدب وتقرير الصلة بين الأدب والحياة. وما كانت لتتم للعقاد زعامة ادبية لو لم تكن احدى خصاله توجيه العصر الى وجهة وتسديد خطاه على محجّة. إلاّ أنك لا تراه منصرفاً الى الدعاية المتعصبة الى مذهب دون آخر من مذاهب القول والتعبير، داعياً الى رفعة شأن الواحد منها عن

(١) «ابن الرومي — حياته من شعره» بقلم عباس محمود العقاد — طبع بمطبعة مصر

طريق القضاء على الآخرين . كلاّ ، بل تستوي لدى العقاد الملحمة المطولة والموشحة الغنائية ، والقصة والأقصوصة ، والمقال الموجز والبحث المستطرد ، والدرامة المسرحية والتراجم الشخصية . فهذه كلها في نظره قوالب لها في يد الحاذق الصناع جمال الشكل وانسجام النسق . ولئن غلبت صورة على غيرها من صور الادب في هذا العصر او ذاك ، فكما تروج الأزياء وتتداول فيما بينها الغلبة . فلا خطر لرواج هذه الصورة من الادب او تلك ، وانما المهم ان يكون الأدب في كل صورة من صوره صادراً عن الحياة . وهذا هو الجوهر ولب اللباب ، وكل ما عداه قشور وأعراض لا تغني عن الجوهر واللباب شيئاً . فما حفز الانسان الى معالجة الفن والأدب الا نزوعه الفطري الى التعبير والبحث عما يقع في وجدانه من المؤثرات وما يختلج في دخيلة نفسه من الدواعي . فلا غرو ان يكون اهم ما يهمنا في الآثر من الآثار الادبية دلالته على الانسان سواء في حياته الشخصية او حياته الاجتماعية او حياته الكونية من تأول عن حكمة المقادير وأسرار الغيب المجهول او تطلع الى وجه الطبيعة الساتر وافتتان بجمالها المعروض .

وبهذه النظرة الصحيحة الى الادب ينظر العقاد الى ابن الرومي الشاعر في كتابه الاخير عنه . فيرى قراء الشاعر انفسهم وقبل غيرهم ، فيه وفي شعره ما لا يتكشف ولا يعرف حق معرفة الا تحت شعاع هذه النظرة وفي نورها الكاشف

يقول العقاد : (المزية التي لا غنى عنها والتي لا يكون الشاعر شاعراً الا بنصيب منها هي مزية واحدة ، او هي مزية نستطيع ان نسميها باسم واحد : وتلك هي الطبيعة الفنية

(ونقول موجزين ان الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته ، أيّاً كانت هذه الحياة من الكبر او الصغر ومن الثروة او الفاقة ومن الالفة او الشذوذ . وتمام هذه الطبيعة ان تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الانسان الحي من الانسان الناظم ، وان يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والازمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الانسان . ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه او يقل ، كما يلتقي الصديقان أحياناً طواعية واختياراً ، او كما يلتقي الغريبان في الحين بعد الحين على كره واضطرار . فالانسان والشاعر في هذه الحالة شخصان يلتقيان في المواعيد ثم يذهب كل منهما لطيته الى ان يتاح لهما اللقاء مرة اخرى بعد زمن طويل أو قصير . وكأن الشعر عند هؤلاء الشعراء روح من تلك الارواح التي تلبس صاحبها وتفارقه ثم تلبسه كلما استحضرها له مستحضر من

الحوادث والاهواء ، فهو اذا لبسته شاعر يأخذ عنها ما تحسه وينقل عنها ما تقول ، وهو اذا فارقته فرد من هذا الملأ الذي لا يوحى اليه ولا يكشف عنه الحجاب

(ابن الرومي واحد من اولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الشاعر فقد عرف ابن الرومي الانسان حق عرفانه ولم ينقصه منه الا الفضول) . وقد عقد الاستاذ العقاد في التعريف بهذه الطبيعة الفنية فصولاً ممتعة مفصلة عن عبقرية ابن الرومي من عبادة للحياة وحب للطبيعة وملكة للتشخيص والتصوير وغير ذلك مما يستطرد اليه استيفاء القول من البحوث القيمة والتعقيب والتحليل ولا مطمع لنا هنا في ان نعرض لهذا الصرح الباذخ البنيان الموطد الاركان ، فحسبنا اذاً في هذا الصدد ما أسلفناه وإن كان لا يعدو مجرد الاشارة

التحقيق العلمي

روى لنا ابن خلكان خبر وفاة ابن الرومي وختام حياته الفاجع فقال ان الوزير القاسم ابن عبيدالله وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش ، فدس عليه ابن فراس فأطعمه خشكنانجة (كعكة) مسمومة وهو في مجلسه . فلما أكلها أحس بالسم فقام . فقال له الوزير : الى اين تذهب ؟ فقال : الى الموضع الذي يشتفي اليه فقال له : سلم على والدي ! فقال له : ما طريقي على النار . . . وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات . ولا ريب انها خاتمة مروعة تليق بسيد الهجائين واقذعهم لساناً وانكاهم سخرية وهزءاً وهي فصل الخطاب والشهادة المفحمة التي لا بعدها شهادة عن مبلغ ما تفعله لواذعه ، وعن شدة الاشفاق والوجل من الاكتواء بناره . ثم هي بعد ميتة يرتضيها الفن كل ارتضاء ، إذ يموت الساخر العظيم وهو يلفظ مع روحه كلمة السخر ، فهو الساخر في حياته ومماته ، لا تذهله سكرات النزع عن حضور بادرته ، وتغلب حلاوة السخر في فمه حتى على طعم الردى الكريه . وهكذا ينزل الستار على حياة ابن الرومي وفي آماقنا دمعة متحيرة وعلى شفاهنا ابتسامة مرتجفة

ويمضي الناس خاصتهم كعامتهم جيلاً بعد جيل يتناقلون هذه المأساة مستريحين اليها . ولا نكران في انها مأساة فنية لا تصدم اعصاب سامعيها بالفجيعة الوحشية المطبقة التي تنبو عنها النفوس وتنقبض دون التفتح لها وقبولها . بل يشوب الفجيعة فيها معنى من معاني التسرية ، وينفس عنها باب من ابواب العزاء الخفي . فقد انتقم ابن الرومي من جلاده ! وذلك بتفويته عليه ضحكة الظفر في مقام الظفر ، وقلبه السخرية عليه بحيث جعله مضحكة لمجلسه وتتذاك ومضحكة لكل هذه الاجيال

استراح الناس الى هذه المأساة ، واقبلوا عليها وقبلوها جيلاً بعد جيل . ولاشك عندنا في ان العقاد الفنان استراح لها وراقته ، ولكنه بعد ان قضى إعجابهُ الفني بها في نفسه عرضها اول العارضين على محك التحقيق العلمي . فاسمع الى تقريره :

(ضعف هذه الرواية ظاهر . لان عبيدالله والد القاسم مات في سنة ثمان وثمانين ، اي بعد آخر تاريخ مفروض لموت ابن الرومي بأربع سنوات . فكان حيًّا عند وفاة الشاعر ، ولا معنى لان يقول القاسم له : سلّم على والدي ! ووالده بقيد الحياة)

وهناك رواية اخرى عن واقعة وفاة ابن الرومي لم تنع ذيوع هذه على ألسنة المتأدبين وهي التي أوردها الشريف المرتضى في اماليه . وقد ناقشها الاستاذ العقاد هي ايضًا واظهر مواطن ضعفها ، ثم انثنى يقول (واذا اردنا ان نمزج بين الروايتين ونسقط منها ما يجب اسقاطه ، فالخلاصة منها ان عبيد الله خاف هجاء ابن الرومي فأوعز الى انه ان يسمه لانه كان اقرب الى مخالطته ومنادمته . ولا صحة لما بعد ذلك من حيث القاسم وابن الرومي ، وانما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ)

بيد ان العقاد بعد تنبيه ما أتفاه لايقف به تحقيقه العلمي عند مطلق القبول لذلك الذي بقي وأجمعت عليه الاقوال ، ونعني به موت ابن الرومي بالسم

(فبين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز اغفالها في هذا المقام ، وهي تبيحنا أن نسأل : ألا يحتمل أن يكون حديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها ، وأن ابن الرومي مات ميتة طبيعية تشتبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة في زمانه ؟ فمن كلام « الناجم » الذي زارهُ في مرض وفاته نعلم انه كان يشكو من إلحاح البول ، فلما لاحظ الناجم ذلك قال :

غداً يقطع البول ويأتي الطرل والغول

وانه كان اعدَّ ماء مثلوجاً لأنه « قلما يموت انسان الا وهو ظمآن » . وكان يقول فيما روته الامالي وهو يشرب الماء ولا يروى :

وأراه زائداً في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

(والظمأ وإلحاح البول عرضان من أعراض « مرض السكر » وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولا سيما بعد أكل الحلوى والافراط فيها . وابن الرومي لم تكن تنقصه أسباب الأصابة به لأنه كان منهوماً بالحلوى والاطعمة الثقيلة ، مستسلماً للشهوات مسرفاً في الشراب مع ضعف أعصابهِ واعتلال جسمهِ . فمن الجائز أنهُ أصيب بهِ فاشتدَّ عليهِ في شيخوختهِ وفصده الطبيب كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته .

ويسهل في هذه الحالة أن يشيع حديث السم وتواجعة لما كان يعتري ابن الرومي من كثرة التوجع أو لما كان مشهوراً عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالغدر والفتك بحيث لا يكبر عليه قتل شاعر هجاه . فاذا كان الموت قد حدث بعد وليمة في بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصعب على الناس أن يعلموه بغير السم والمكيدة ، وإن كان الطعام وحده كافيا للقضاء على رجل جاوز الستين ، في شيخوخة متهدمة مهملة ، طالت إصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسوراً في أيامه

(هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات . وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح إغفاله في تحقيق وفاة الشاعر . فهي احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل)

والى مثل ما احتاجت اليه ظروف وفاة ابن الرومي من مراجعة وتمحيص يحتاج تاريخ وفاته . فنحن لو أخذنا أقوال المؤرخين أخذ التسليم لصح أن الرجل مات أكثر من مرة ! ومن الغريب ألا يخطر لأحد من مؤرخي الآداب العربية عندنا أو عند المستعربين أن يقطع هذا الشك باليقين . حتى جاء العقاد وأثبت للمتوفى تاريخ وفاته

كل هذا يضطلع به العقاد ليحقق من ابن الرومي آخر ساعاته ، فما بالك والكتاب يستغرق بين دفتيه كل حياته : من أصله ونشأته ، وانتمائه الى الروم من جهة أبيه والى فارس من جهة أمه ، وخيبته في أولاده ومصابه في زوجته ، وأيام صباه وتعليمه ، ومزاجه وأخلاقه ، وحال معيشته ، وما لزمه من التشرد لقلة حيلته . . . الى آخر ما يكمل به وصف حياة هذا الشاعر العامر بالصفات والسمات . ثم مابالك والاخبار المدونة عنه فضلاً عن كونها موزعة فيها انحدر من الاسفار فانها محدودة قليلة الغناء ، وقد صارت بعد انتخالها وتمحيصها أقل غناء . أجل ، ما بالك أيها القارىء والعقاد انما يعتمد جل اعتماده في جلاء هذه الحقائق على ديوان الشاعر . فهو يكفف على دراسة شعره متيقظ الذهن ملبي الاحساس فلا يفوته بيت من الابيات يعرض بين المئات في سياق القصيدة اذا كان مؤداه يؤدي الى اثبات خلق لابن الرومي أو سمة له من السمات أو خبر من أخباره . ثم هو لا يني يلحق هذا البيت أو الابيات بشواهد أخرى وأخرى من أبيات في نفس الموضوع يتعقب أثرها هنا وهناك في ديوان الشاعر ، فيقابل بينها ويعارض ، ويتناولها بالنقد ويقلبها على جميع وجوهها ، ويورد كل احتمال قد يتوارد على الذهن حتى يقر الحقيقة في نصابها دون زيادة أو نقصان

ولقد وفق العقاد التوفيق كله في نهجه الذي نهجه . وأنا ليس ينقضي تعجبنا كلما تمثلنا ابن الرومي وقد اجتمعت من أبيات شعره أوصال جسمه وملامح صورته :

(كان ابن الرومي صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجه يخالط لونه شحوب في بعض الاحيان وتغير ، ساهم النظرة يبدو عليه وجوم وحيرة . وكان نحيلاً ، يبين العصبية في نحوله . أقرب الى الطول ، أو طويلاً غير مفرط . كث اللحية أصلع ، بادر اليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه . ولم يكن قط قوي البنية في شباب ولا شيخوخة . ولكنه كان يحس القوة اليسيرة في الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام . فكان اذا مشى اختلج في مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلال اعصابه واضطراب أعضائه . وكان على حظ من وسامة الطلعة في شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة في صفحة وجهه . أما في الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به ما لابد أن يلحق بمثله من تغير السقام والهموم)

ولم يقف تحقيق العقاد عند المحسوسات من الوقائع والسمات ، بل تعداها الى تحقيق الصفات المعنوية : فمن ذلك أنه وقر في وقر في الاذهان أن ابن الرومي لا يولع بالهجاء هذا الولع ولا يفحش فيه الفاحشة الموجع الا وهو مضطغن حقود ، فكيف اذا اعترف في أشعار له معروفة وشهد على نفسه بدفين حقده ! هنا أيضاً لم يؤخذ العقاد بأجماع الناس ولا باعتراف المتهم وعمد الى التحقيق فاسمع الى بيانه :

(علام تدل النقمة ؟ ثم علام يدل الاعتراف ؟ إن الانسان لينقم وهو من أشرف الناس في نقمته ، وانه ليرضى وهو من أخبث الناس في رضاه . وان اعتراف المعترف لاحجى أن يبرئه من رذيلة المواربة والنفاق وهي رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحقود

(ويلوح لنا ان نقاد الاخلاق على الطريقة العتيقة لا يختلفون كثيراً عن قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون « المتهم » ليقر بالذنب ، ثم يأخذونه بشهادة على نفسه . . . . فغاية الفرق بينهم أن نقادنا لا يضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق اليهم هل هو مضروب أو غير مضروب ؟ وتخالهم يغتبطون بأن يساق اليهم مضروباً معترفاً ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤونة السؤال والجواب !

(وشهادة الانسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير ، كلتاهما لا قيمة لها ما لم يكن له مصداق من الطبيعة والواقع . فيجب أن نعلم اولاً لماذا شهد ابن الرومي على نفسه بالحقد هذه الشهادة . فان الحقود لا يشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة لا يكون مطبوعاً على الحقود . وصراحة ابن الرومي هنا تلفت النظر الى أمر شاذ في هذا « الاعتراف » وتدعونا الى السؤال عن سره ، وسرهُ ليس ببعيد

(فالرجل كان يدعي الحقد ليخيف الذين يستوحشون جانبهُ ويستسهلون ارضاءه بعد اغضابه ، فما كان يذكر الحقد الا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفي او ظاهر ، ويخيّر الناس بين شكره وحقده ليغنموا شكره ويجتنبوا حقده ، فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التي ينتحلها بعض الحيوان للاخافة والتهويل حين لا يكون مخيفاً ولا هائلاً في الحقيقة. وهو محتاج الى دعواه حاجة الحيوان الى سحنته البغيضة في معترك الحياة

(وسبب آخر لاعترافه بالحقد انهُ كان يتفلسف ويدرس الجدل ويتعاطى صناعة البرهان ، ويحب ان يمتحن قوته في المنطق والفلسفة بتقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجهيهِ ومن تنازع الاقوال فيه . وتلك سنة كانت معروفة في ذلك العصر ويقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان. فمدح ابن الرومي الحقد ولكنهُ ذمهُ ايضاً في اشعار له أخرى ، ولم يقصر بحجة الذم عن حجة المديح » وهنا اورد الكاتب قصيدتين لابن الرومي في ذم الحقد » . فابن الرومي القائل هذا هو ابن الرومي القائل ذاك . . .

(وكاننا بقضاة الحكمة العتيقة يتحفزون للادانة المبرمة ويبحثون بين ايديهم عن الجرم الذي دانوه فلا يجدون هنالك الا متململاً يقلّب القضية على وجهيها ، أو هرّاً مستضعفاً يزأر لانهُ خائف لا لانهُ مخيف . . . ! ويعلمون أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم وطبيعته ، ويعترف على نفسه بحقده ، ولا يكون بعد ذلك على شيء من الحقد كثير ولا قليل

(وجميع اخلاق ابن الرومي تنتهي عند البحث فيها الى مثل هذه النهاية . فهو لا يعرف من الاخلاق الا ما يحضره سببهُ وتختلج في صدره دواعيه

(فهو ابن ساعته ، وطوع الحاضر من احساسه و « النوبة الطارئة » هي المفتاح الذي ينفض به على الجملة كل ما استغلق من اسرار نفسه)

والآن وقد اوجب ضيق المقام اقتضاب القول نحب قبل الختم ان نشير الى ان هذا التصحيح للنظر الأدبي والتحقيق العلمي مثل سائر مؤلفات العقاد تشترك فيها جميعاً قوى متفاعلة ناجمة من صحة النظر وسداد الادراك وعمق التفكير وسمة الحماسية ووسواس التحري والاستقصاء وملكة الترتيب المنسجم والبيان الناصع ، وان هذا الذي في كتابات العقاد يخاله البعض من قوة اقناعه منطقاً ليس في الحقيقة منطق الكلام وإنما هو قبل كل شيء منطق الاحساس القويم. كذلك نحب ان نشير الى اسلوب الكتاب وعبارته فنكرر ما سبق في غير هذا المكان ترديده وهو أن كل لفظ في العبارة له قيمة الارقام الحسابية الدالة على العدد فلم يضفه الكاتب الأوفى لضافته زيادة في المعنى وقوة . والحق أنها لمعجزة أن تكون هذه الدقة الحسابية مفرغة في قالب من جمال الفن السامي عبد الرحمن صدقي